العدد الثاني والعشرون
2005

مجلة كلية الدعوة الإسلامية

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة - محكمة تصدر سنويا

1373 من وفاة الرسول ﷺ الموافق لعام 2005 مسيحي

- المادّية في فكر المذاهب المعاصرة
- مكوّنات البنية وسمات الخطاب
- الفتوى بين النصّ الفقهيّ والواقع
- حقوق الإنسان في الإسلام

التفاعل العقدي والحضاري بين الغرب الإسلامي والسودان الأوسط والغربي

أ.د. محمّد مسعود جبران
كليّة الدعوة الإسلاميّة

من الحق والموضوعية أن نُقرِّر في البدء أنَّ هذا الموضوع «التفاعل العقدي والحضاري» بكلِّ مكوناته الدينية الإسلامية والاجتماعية الحضارية والعلميّة المعرفيّة، بين الغرب الإسلامي الذي سبق تعريف مصطلحه، وبيان آفاقه، والسودان الأوسط الذي يضمُّ النيجر وتشاد، والسودان الغربي ومن مشمولاته نيجيريا والكمرون ومالي وغانة والسنغال، يمثِّل في تقديري موضوعاً بحثياً مهماً في سياق التعريف بالغرب الإسلامي وتراثه ودوره الإيجابي الفعَّال والمؤثر في نشر الإسلام وثقافته ولغته من جهة، وفي إبراز أشكال التواصل الروحي والمعرفي والعمراني الممتد بينه وبين الديار الأفريقية الاستراتيجية ـ عبر التاريخ الطويل من جهة أخرى.

وعلى الرغم مما كتب في هذا الموضوع المهم وحبر من كتب ودراسات، وحُرِّر من بحوث وتصانيف وتآليف وعقد من ندوات ومؤتمرات؛ فإنّه لا يزال في تقدير الباحثين الجادّين. في حاجة مُلحّة وماسّة لمزيدٍ من الدراسات والإنارات، وذلك لغياب كثير من المصادر والمظان والوثائق التي تلقي الأضواء على تاريخه وأطواره وخفاياه، وتنير الجوانب المظلمة عن أعلامه وقضاياه وبخاصة الجوانب والحقائق المغفول عنها.

وما هذه الشذرات والقطوف المختصرة والمجموعة من المصادر والمراجع المتفرقة، والتي تضمنها هذا البحث في سياق هذا الكتاب، إلا محاولة متواضعة في هذا النسق البحثي الذي سلكته جهود الباحثين المسلمين والأفارقة والمستشرقين ـ في تجسيد ملامح هذا الدور الإيجابي الذي نهض به الغرب الإسلامي، (ليبيا وتونس والجزائر والمغرب وموريتانيا أو شنقيط) تجاه وسط أفريقيا وغربها، أو ما يطلق عليه قديماً بلاد السودان أو بلاد التكرور، من حيث بذل الجهود المحتسبة من أعلامه وعلمائه ومؤسساته ـ قديماً وحديثاً ـ في تبليغ العقيدة الإسلامية الصحيحة، وإثراء الحياة الإيمانية والروحية للمسلمين، ونشر اللغة العربية وآدابها، وتعميم المظاهر الرفيعة للثقافة والحضارة والفكر في هذه الربوع الأفريقية إلى أن هيمن الإسلام على كلِّ الأديان والعقائد وغلبت اللغة العربية كلَّ لسان ولغة.

كما يتكفّل البحث بإظهار أشكال الاستجابة الحقيقية والتلقائية والمؤثرة أيضاً من هذا الأفق الأفريقي لقيم الإسلام الكبرى، ولمعطيات حضارته وثقافته، مما شكّل وكوّن من هذا التفاعل منذ القرن الأول الهجري إلى عصرنا هذا في القرن الواحد والعشرين وحدة قوية موصولة بين هذه الديار الرحيبة وأهلها في الشمال والجنوب، وصدق الله تعالى حيث قال ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[1].

وحقيق بالذكر هنا أن نؤكد ما أكّده المؤرخون والباحثون قبلنا من أن هذه

(1) سورة الحجرات، الآية: 13.

الصلات الاجتماعية والحضارية بين دول شمال أفريقيا المُعبَّر عنها بدول المغرب أو الغرب الإسلامي ودول أفريقيا وأقطارها أوسطها وغربيها صلات تاريخية قديمة، بل موغلة تاريخياً في القدم، وأنّها كانت قائمة على الرغم من وجود الفاصل الطبيعي، فاصل الصحراء الجرداء الكبرى[2] وذلك بما انعقد والقرطاجنين بين تلك الأقاليم والشعوب منذ عهد الفينيقيين والقرطاجنين والرومان من علائق اجتماعية وتجاريّة وسياسيّة مطردة[3] وأنَّ هذا العامَل أعني الصلات البشرية القديمة بين سُكان هذه الديار هو نفسه الذي مَهَّد ـ فيما بعد ـ لانتشار الإسلام وأحكامه المُقنعة وثقافته الخصيبة، ولغته الثريّة، وحضارته القائمة على العدل والمساواة سواءً عن طريق الفتح لبعض المناطق من بلاد التكرور في البداية أم عن طريق الدعوة السلمية في القرون اللاحقة.

لا بأس من أن نؤكد ونقرِّر بل نكرِّر من جديد أنَّ هذه المحاولة البحثية إنما تهدف إلى إجلاء ملامح هذا التفاعل العقدي والحضاري بين الغرب الإسلامي وبين السودان الأوسط والغربي، كما ترمي إلى إبراز مشاهد وأوضاح من المساهمات العملية التي شاركت فيها بلدان تلك الأقاليم بأنصباء متفاوتة من أجل ترسيخ الوحدة العقدية والحضارية في البلاد السودانية الأفريقية.

وقد آثرتُ أَن أَدرس في البحث أبعاداً من هذا الموضوع الحيوي من خلال مظاهر التفاعل المتنوعة بين الأفقين، والتي ضبطت في البحث في المحورين الآتيين:

أولاً: التفاعل الدعوي العقدي والروحي.

---

(2) قال الدكتور حسين مؤنس في وصفها «أكبر صحراء على وجه الأرض ومساحتها تزيد على أربعة ملايين كيلومتر مربع، ولا يقل عرضها من الشمال إلى الجنوب في أضيق نواحيها عن 1700 كيلومتر «راجع بحثه» غرب أفريقيا الإسلامي المداري الاستوائي «مجلة مجمع اللغة العربية ج60/ 1987. راجع في ذلك: الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس لحسن علي حسن، موسوعة التاريخ الإسلامية لأحمد شلبي، جذور الحضارة الإسلامية في الغرب الأفريقي لبرايماباري.

(3) المراجع المذكورة، وراجع أيضاً: تاريخ الدول الإسلامية السودانية بأفريقيا الغربية للدكتور عبد الرحمن زكي، والجذور التاريخية للصلات العربية الأفريقية للدكتور حميد دولاب ضيدان.

ثانياً: التفاعل الحضاري (الاجتماعي ـ العمراني).

على أن الفصل الشكلي الذي يُلحظ في المحورين، لا يعني بالضرورة انفصالهما وانفكاكهما التام عن بعضهما فهما ـ كما لا يخفى عناصر متداخلة ومتكاملة.

كما أنَّ اقتصارنا في هذا البحث على تناول مظاهر التفاعل بين هذين الأفقين الغرب الإسلامي وأفريقيا لا يعني بالضرورة أيضاً أن بلاد المشرق لم تسهم بشيء ولم تؤثر في هذه المظاهر، فقد كان للشرق أيضاً دوره البارز في بعض أشكال التفاعل العقدي والحضاري والعلمي وهو ما تولّت إبرازه كتبٌ ودراساتٌ وبحوثٌ سابقة[4]، لقد عمدنا إلى هذا الفصل الشكلي لمجرد محاولة الإتيان بالجديد، والدرس الجزئي المنهجي والاستقصاء والتتبع ما أمكن لجانب مغفول عنه.

أولاً ـ التفاعل الدعوي (العقدي والروحي):

لقد سبقت الإشارةُ إلى أَنَّ أَقطار الغرب الإسلامي في الشمال الأفريقي بداية من ليبيا وانتهاء بالمغرب الأقصى وموريتانيا (شنقيط) قد شرفت جميعاً بالدخول في دين الإسلام الحنيف منذ أوائل القرن الأول الهجري، وبالتحديد في عهد الخليفة الراشد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب[5].

ثم استمر ذلك الفتح ـ على فترات ـ إلى أن بلغ العهد السفياني الأموي في عهدي معاوية بن أبي سفيان، وولده يزيد بن معاوية[6].

وتجمع كثير من المراجع التاريخية أيضاً على أنَّ السودان الغربي قد

---

(4) راجع موسوعة التاريخ الإسلامي، علم اللغة العربية لمحمود حجازي، الإسلام في نيجيريا.

(5) راجع العبر لابن خلدون، أعمال الإعلام لابن الخطيب، تاريخ المغرب العربي لمحمد دبوز فتوح مصر والمغرب والأندلس، لعبد الرحمن بن عبد الحكم، رياض النفوس للمالكي المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب للبكري.

(6) راجع تاريخ المغرب في العصر الإسلامي ـ 105.

دخلت بعض أقطارها في الإسلام في القرن المذكور، وبعد سنوات من أوائل ذلك القرن عن طريق دعاة وفدوا من الشرق، قادهم الصحابي الجليل عقبة بن نافع، ونافع بن عبد القيس الفهري، ففتحوا فزان بليبيا، ثم إقليم كوار في السودان الأوسط وما بعده، إلى أن تأكَّد هذا الاعتناق فيما بعد عن طريق الدعاة من أقطار الغرب الإسلامي الذين بذلوا الوسع ـ عبر العصور كما سيأتي ـ في إنقاذ السكان الأفارقة من دياناتهم الوثنية السابقة.

فقد قرّر الشيخ عبد الله بن فودي في كتابه «تزيين الورقات» أَنَّ الإسلام دخلَ إلى غرب أفريقيا ـ كما نسميه اليوم. في القرن الأول الهجري على يد عقبة بن نافع الذي وصل إلى قبيلة من قبائل الروم، ودعاهم إلى الإسلام، إذ أَسلم ملكهم بدون قتال، وتزوَّج عقبة بنته المساماة «بج منغ» والتي ولدت له أولاداً نشأوا في بلاد أُمهم، وتكلَّموا بلغة أبيهم؛ فكان ذلك بدءُ دخول الإسلام، ولغته العربية[7] إلى بلاد السودان، وقال الأستاذ آدم عبد الله الألوري مؤيداً ذلك «لقد انبثق فجر الإسلام على سماء نيجيريا في أواخر القرن الأول الهجري الذي فتح فيه المسلمون العرب شمال أفريقيا وجزءاً من غربها»[8].

كما أَكَّد هذا المعنى في تحديد تاريخ الفتح ودخول الإسلام إلى وسط أفريقيا وغربها عديد من الباحثين[9].

ويمكن ضبط تاريخ هذا الفتح بأَنَّه قد تمَّ بعد عدّة سنوات من بداية النصف الثاني من القرن الأول الهجري، وبالتحديد في زمن معاوية بن أبي سفيان، فقد ولَّى معاوية عقبة بن نافع سنة (50هـ/ 670) فتوسَّع عُقبة في الفتح إلى أن وصلت فتوحاته إلى القيروان بتونس، غرباً، وإلى منطقة إقليم كوار ـ حسب الرواية

(7) راجع تزيين الورقات لعبد الله بن فودي.

(8) موسوعة دول العالم الإسلامي ورجالها، الدعوة الإسلامية في أفريقيا الواقع والمستقبل، أعمال ندوة التواصل الثقافي والاجتماعي. كلية الدعوة الإسلامية بطرابلس، إشراف د. عبد الحميد الهرامة.

(9) الإسلام في نيجيريا: 17، تاريخ الدول الإسلامية السودانية: 29.

السابقة جنوباً ثم عزل معاوية عقبة وولّى مكانه أبا المهاجر، وأَوصى معاوية في مرض موته ابنه يزيد أن يعيد عقبة إلى ولايته وفتوحاته، فتابع عقبة ذلك إلى بلاد أفريقيا الشمالية إلى أن وصل إلى بلاد السوس في المغرب الأقصى[10].

ويستفاد من ذلك أنَّ عقبة كُلِّف بفتح أفريقيا مرتين الأولى في عهد معاوية بن أبي سفيان، وقد اختلف في تحديد سنتها سنة (50م/ 670) كما تقدم أو قبل هذه السنة بأربع سنوات أي في سنة (46/ 666) قال الدكتور عبد الرحمن الماحي «فقد وصل عقبة بن نافع إلى «بلما» عاصمة إقليم كوار سنة 46 الموافق لسنة 666، وترك فيها بعض الدعاة، وتبعد بلما عن بحيرة تشاد نحو الجنوب بحوالي 600 كيلومتر»[11].

بينما ذهب بعض الباحثين ـ وهم قلّة ـ في تحديد زمن الفتح للسودان الأوسط والغربي من الجهة الشرقية إلى زمن أبعد من الزمن المذكور، حيث ذكروا أنَّه تم في عهد الصحابة رضوان الله عليهم، وليس في زمن دولة بني أمية، «لأنَّ القائد المتوجّه نحو بلاد التكرور عقبة بن عامر دخل تلك المناطق في السنة 24 أو 25 من هجرة الرسول ﷺ»[12].

كذلك ذكر المؤرخون أن هذا الفاتح نفسه عقبة بن نافع، مضى ـ بعد ذلك أي في التكليف الثاني إلى فتح أفريقيا من جهة المغرب الأقصى وذلك عندما واصل فتوحاته وحركته الجهادية في الأقاليم الأخرى من الغرب الإسلامي إلى أن بلغ بجيشه مدينة «تارودانت» وهي اليوم مدينة معروفة في أقصى الجنوب من بلاد المغرب الأقصى، وبنى مسجداً في مدينة ماسه على مشارف أقصى السودان الغربي، وقد بالغ بعض المؤرخين فذكروا أنَّ عقبة بن نافع دخل أيضاً بلاد السودان من جهة الغرب وفتح بلاد التكرور وغانة[13].

---

(10) محمود شاكر «نيجيريا»: 8.

(11) الدعوة الإسلامية في أفريقيا الواقع والمستقبل: 55.

(12) الرسالة الجلية لمكانة نيجيريا العلمية: 30، 31.

(13) الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا: 176.

وقد شكَّك بعضُ الباحثين في حقيقة هذه الرواية الزاعمة دخوله إلى السودان أو بلاد التكرور، وشككوا في صحتها، وقرَّروا أنَّ فتح بلاد السودان الغربي وما إليه من جهة المغرب الأقصى، إنما تمَّ في مراحل تاريخية لاحقة[14]، أي في الطور الدعوي السلمي.

والذي نذهب إليه أنَّ أسلمة الحياة العامة في بلاد التكرور عقدياً، سواء من جهتها الشرقية في كاواروبرنو وصوكتو وأقذز وما إليها، سواء من جهته الغربية من جهة تنبكتو وغانة والسنغال وغيره، لم تتم بشكل نهائي لا في عهد الصحابة، ولا في العهد الأموي السفياني على يد الفاتح العظيم عقبة بن نافع، بل إن هذه الأسلمة العقدية للسودان الأوسط والغربي، إنما تمت في القرون اللاحقة، أي في الطور الذي نطلق عليه الطور الدعوي السلمي، بالطرق الدعوية الإقناعية عن طريق التجَّار والعلماء، والتعارف بين السكان، والاختلاط البشري المستمر، وهو الطور الذي نهض فيه أهل الغرب الإسلامي بجهد عملي كبير كما سيأتي بيانه.

ومهما يكن من أمر؛ فقد نتج عن دخول الإسلام وعقيدته، ولغته العربية المقدسة في السودان الأوسط والغربي في الطور الأول في النصف الثاني من القرن الأول الهجري، ثم في الطور الآخر الممتد عقب مرحلة الفتح عبر القرون اللاحقة أن أخذ السكان السودانيون عن إخوانهم والوافدين والطارئيين من الغرب الإسلامي الإسلام الحنيف، ثم تأكَّد الاتصال والتواصل والتفاعل بين ذلك الأفق ودعاته من العلماء والتجار في القرون التي تلت ذلك القرن، فتوسَّع الأفارقة في أخذ ثقافته وحضارته، فأتقنوا القرآن حفظاً وتلاوة، وتعلّموا السنة والفقه، وتلقوا عن حَمَلَة هذا الدين القويم ما فيه من سماحة وأحكام ومساواة وعدل وآداب سلوك؛ فَصارت تلاوتهم للقرآن مطابقة لتلاوة أَهل الغرب الإسلامي، وهي قراءة نافع من رواية ورش، قال أستاذنا العلاّمة محمد المنوني ـ رحمه الله ـ في معرض الحديث عن مالي، وهو ما ينطبق أَيضاً على أقطار السودان وبلاد

(14) م. ن: 176.

التكرور بعامّة «ثم كانت تلاوة تلك الجهة ذاتها للقرآن الكريم تتبع اتجاه المغرب؛ فيأخذون بقراءة نافع من رواية ورش، فضلاً عن اختيارهم للمذهب المالكي»[15].

وقد ألمح المؤرخ عبد الرحمن بن خلدون من قبل إلى طريقة المغاربة في تعليم القرآن الكريم بتلك الرواية، واقتصارهم على تعليم أبنائهم بها دون أن يخلط مع هذا التعليم سواه من العلوم سواء من الحديث أو الشعر أو غيره[16].

قال الأستاذ آدم الألوري (وهي طريقة قريبة إلى طريقة غرب أفريقيا بتغير يسير)[17].

كذلك قلّد أهل السودان الأوسط والغربي المغاربة بل الغرب الإسلامي في الخط والكتابة المغربية وبخاصة الخط المغربي المعتاد، قال الفقيه محمد المنوني «إن كتابة هذه المنطقة بالخط المغربي على طريقة المغاربة»[18].

وقد ذكر هذا الملحظ قديماً أبو العباس أحمد القلقشندي حيث قال «وكتابتهم (يعني أهل السودان) بالخط العربي على طريقة المغاربة»[19] وأشار إلى أن رسائلهم الديوانية التي ترد على سلاطين المشرق تكتب بذلك قال «وقد ورد إلى السلطان الناصر كتاب موسى بالخط المغربي»[20].

كما سار أهل السودان الأوسط والغربي بالإضافة إلى أخذهم التلاوة والمذهب المالكي والخط المغربي المعتاد ـ عن المغاربة، على طريقتهم ـ حسبما نوضّح ـ في قراءة العلوم الإسلامية المختلفة من التوحيد والعقائد والفقه وأصوله، والتصوّف، وتأثروا كثيراً بمؤلفاتهم وكتبهم ومتونهم العلمية.

---

(15) الفقيه المنوني (أبحاث مختارة): 337.

(16) العبر 6: 420.

(17) الإسلام في نيجيريا: 53.

(18) م. ن.

(19) صبح الأعشى 5: 398.

(20) م. ن 5: 398.

وسوف يتضح لنا أيضاً أن لعلماء الغرب الإسلامي دوراً كبيراً في تعليم اللغة العربية ونشرها في هذا الأفق الأفريقي، وتعميم الذائقة اللغوية والأدبية في أهله، بالمستوى الذي استطاعت به هذه اللغة أن تكتسح بفضل قدسيتها العقدية اللغات واللهجات الأفريقية الأصلية، قال توماس أرنولد «غدت اللغة العربية لغة تخاطب بين قبائل نصف القارّة الأفريقية»[21].

وقال الدكتور إبراهيم طرخان «وبجانب الاهتمام بالقرآن، هناك الاهتمام بلغة القرآن، وهي اللغة العربية التي اكتسبت مسحة من التقديس عند مسلمي غرب أفريقيا عامة»[22].

وقد برز في هذا الدور الدعوى الذي وَلِيَ مرحلة الفتح عددٌ من الدعاة الهداة منهم العالم محمد بن ماني الذي تشير الدراسات إلى أنَّه كان مغربي الأصل، وأنَّ سلطان «كانم» «أومي جلمي» أسلم على يديه كما أسلم كثير من أهلها بفضل دعوته ودعوة تلاميذه[23] وهو الجهد الدعوي الذي قام به الكثرة الكاثرة من رجال الغرب الإسلامي من أمثال علي بن يخلف النفوسي[24] وغيرهم ممن سنأتي لذكرهم.

وقد برز في هذا الطور الدعوي السلمي على مستوى الجماعات والدول في القديم جهد الشيخ أبي علي محمد علي عبد الله بن ياسين المغربي المؤسس الأول لدولة المرابطين، أو الملثمين بالمغرب الأقصى[25]، وذلك حينما اتخذ رباطه المبدئي الذي انبعثت منه دعوته الدينية والسياسية في حوض السنغال، أقصى السودان الغربي من جهة الغرب، حيث تحلَّق به تلاميذه ومريدوه من

---

(21) راجع الدعوة إلى الإسلام.

(22) راجع إبراهيم طرخان «امبراطورية مالي الإسلامية» «امبراطورية غانة الإسلامية».

(23) إبراهيم صالح: تاريخ الإسلام وحياة العرب في كانم: 256 الثقافة الإسلامية في تشاد: 251.

(24) السير للشماخي 2: 115، 116.

(25) راجع «الاستقصاء لأخبار المغرب الأقصى» للناصري، «المغرب عبر التاريخ» للدكتور إبراهيم حركات، «عبد الله بن ياسين» لعبد الله كنون، وبحث عبد الله بن ياسين ومعالم الوحدة الثقافية المغاربية الأفريقية «للدكتور محمد أمين إسماعيلي».

المغاربة وأهل السنغال والسودان، الذين أخذوا عنه دعوته، وتشربوا مذهبه، وقيل إنهم بلغوا ألفاً في العدّ «ثم أمرهم أن يقوموا بالدعوة إلى بلاد السودان، وقاموا بالجهاد؛ فحاربوا ممالك الزنوج وأسسوا دولة المرابطين في جنوب الصحراء»[26].

وقد فتحت على يد هؤلاء الدعاة المرابطين عديد من الدول والأقاليم «من شمال السنغال وشمال غانة وشمال الداهومي وشمال نيجيريا»[27].

ومضى بعد ذلك الأمير أبو بكر بن عمر المرابطي في هذه الحركة من الجهاد والدعوة، ونشر الدين والعقيدة الإسلامية في أفريقيا بعد أن فتح أماكن ومواضع أخرى من غانة وتكرور ومالي، وصارت هذه الأقاليم تدين بدين الإسلام، وتتبع سياسياً وعقدياً الدولة المرابطية في المغرب الأقصى»[28].

ومن المعروف أنَّ الدولة المرابطية دولةٌ دينيةٌ إسلامية كان لها تأثيرها السياسي الواسع في الغرب الإسلامي، وكانت السلطة المطلقة فيها للفقهاء وعلى رأسهم مؤسسها الأول أبو محمد عبد الله بن ياسين ثم رؤساؤها يوسف بن تاشفين وعلي ابن يوسف بن تاشفين، وتاشفين بن علي بن يوسف[29].

كذلك امتد هذا التأثير العقدي فيما بعد إلى الدول المغربية التي قامت في الغرب الإسلامي بعد زوال دولة المرابطين، مثل الدولة الموحديّة والدولة المرينية والدولة السعديّة؛ فقد عرفت هي الأخرى بإسهاماتها العقدية واللغوية في البلاد السودانية[30] والذي لا خلاف فيه أن الذي قوّى هذا المظهر من

---

(26)راجع: الاستقصاء في أخبار المغرب الأقصى للناصري، المغرب عبر التاريخ للدكتور إبراهيم حركات.

(27)راجع: الاستقصاء في أخبار المغرب الأقصى للناصري، والمغرب عبر التاريخ للدكتور إبراهيم حركات و«دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب أفريقيا» للدكتورة عصمت عبد اللطيف.

(28)راجع: الاستقصاء في أخبار المغرب الأقصى للناصري و«دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب أفريقيا».

(29)راجع: الاستقصاء في أخبار المغرب الأقصى للناصري و«المغرب عبر التاريخ».

(30)راجع: الاستقصاء في أخبار المغرب الأقصى للناصري 4: 3، 5: 3، 99.

التفاعل العقدي والروحي منذ القرن الأول الهجري إلى يومنا هذا، بالإضافة إلى خصائص الإسلام العظيمة، ومميزاته المتمثلة في عمق الأحكام، وشمولية المعالجة، وفطرية الشعائر التي تغذي وجدان الإنسان بالسماحة والمساواة والعدل، وأيضاً حماسة علماء الغرب الإسلامي وتجاره وهداته، دخول الطبقات الاجتماعية الرفيعة والمتميزة في المجتمعات الأفريقية في الإسلام، مد تبنيها لدعوته، وقيامها بنشر تعاليمه وتشجيع علمائه وأعلامه، ومناصرة التجار المغاربة الوافدين بالتجارة إلى أراضيهم، فقد اعتنقه الملوك والأمراء، من رجال السودان الأوسط والغربي، الذين عملوا منذ إشراق شمس الإسلام على ربوعهم على ربط الأواصر والصلات، وتوثيق العلائق بالفاتحين والدعاة.

فقد مرَّ بنا أن الفاتح عقبة بن نافع تزوج بنت الملك المسماة «بج منغ»[31] وأن سلطان كانم «أومي جلمي» أسلم على يدي العالم المغربي محمد بن ماني[32]، كما أسلم من ملوك السودان في القرن الخامس الهجري ملك التكرور ورجابي بن رابس سنة (410/ 1019)[33] وفي القرن نفسه أسلم ملك سنغاي سنة (468/ 1075)[34].

وأخبرنا التاريخ أن الداعية الطرابلسي الليبي علي بن يخلف النفوسي نسبة إلى جبل نفوسة بالجبل الغربي عمل جاهداً على نشر الدعوة في القرن السادس الهجري بالسودان الغربي الذي كان له تأثيره فيه، وأنَّ هذا التأثير لم يكن مقصوراً على هداية العامّة فحسب، بل بلغ به إلى الخاصة من الكبراء، وكان من جملة من أسلم على يديه منهم ملك غانة الوثني برمندان سنة (575/ 1179) والذي سُمي بعد إسلامه بالملك «المسلماني»[35].

---

(31) الإسلام في نيجيريا: 18.

(32) الثقافة الإسلامية في تشاد: 62، 92، 93.

(33) السير للشماخي 2: 115، 116. أحمد الياس حسين «دور الفقهاء الأباضية في إسلام مالي: 57.

(34) راجع السعدي «تاريخ السودان» وإبراهيم طرخان «امبراطورية صنغي» والبكري «المغرب في ذكر أفريقيا والمغرب» 178.

(35) التاريخ الحضاري لأفريقيا فيما وراء الصحراء: =

أما الملك منسا موسى، وهو من ملوك السودان الغربي المشهورين في التاريخ، فقد عرف بإخلاصه التام للإسلام وكان موصوفاً «بالتدين وتقوى الله، وأنّه شجَّع شعبه على طلب العلم، وإبداء الاحترام لعلماء الدين وطلبة العلم»[36] ومن المعروف أنَّ هذا السلطان نفسه أحكم علائقه بالسلطان أبي الحسن المريني حاكم المغرب الأقصى، بل ظهرت أشكال هذه العلائق في صور من أحكام الدبلوماسية والمهاداة، إذ أسفرت بينهما ـ كما يقول ابن خلدون «الأعلام من رجال الدولتين»[37] والحقُّ أنّه لا ينكر دور إبراهيم الساحلي الأندلسي المستشار المغاربي للسلطان منسا في تلك العلائق[38]، وسوف نعرض بعد قليل لهذه الشخصية الأندلسية ودورها السوداني الأفريقي الواسع.

وقد صنع هذا الصنيع نفسه ـ في نصرة الإسلام وتقوية الأواصر العقدية والروحية مع المسلمين ـ الملك ماري جاطه ملك مالي الذي انحاز إلى الإسلام، وشجع أتباعه على اعتناقه، والالتزام بمبادئه وأحكامه، ونشر حضارته وثقافته[39]، قال عبد الرحمن بن خلدون في تاريخه «العبر» كلاماً يؤكد ذلك الانحياز والتشجيع الذي عرف به هذا الملك «إنَّ تلك الامبراطورية «مالي» شهدت في عهد ملكها «ماري جاطة» انتشار الإسلام، وتشجيع علمائه على نشر علومه بين المناطق الأفريقية، التي سافر إليها في عهده آلاف من التجار والعلماء المسلمين من بلاد المغرب الأقصى وشمال أفريقيا وطريق الصحراء[40].

والجدير بالتنويه أن العلائق السياسية والدبلوماسية بين حكام الغرب الإسلامي وسلاطينه وأمرائه، ودعاته وهداته استحكمت صلاتها عبر العصور؛

= الأباضية في موكب التاريخ لعلي معمر، خيري عبد الرازق جاسم، صحيفة الدعوة الإسلامية ع843 س2003. دور الفقهاء الأباضية في إسلام مالي: 57.

(36) جذور الحضارة الإسلامية في الغرب الأفريقي.

(37) العبر 6: 420.

(38) العبر 6: 420 وراجع إبراهيم الساحلي ودوره الثقافي. للدكتور محمد بن شريفة.

(39) راجع السعدي «تاريخ السودان».

(40) راجع طرخان «امبراطورية صنغي، وقمر الدين فضل الله «لمحة تاريخية عن مملكة صنغي الإسلامية» مجلة كلية الدعوة الإسلامية 1987.

فنذكر على سبيل التمثيل لا الحصر ـ تلك الصلة السياسية التي انعقدت بين المؤسس الأول لدولة المرابطين عبد الله بن ياسين في القرن السادس الهجري وبين الزعامات الأفريقية في عهده وعهد خلفه الذين لم تنقطع صلتهم ببلاد السودان، ونذكر الوشائج السياسية والدبلوماسية التي ربطت بين دولة بني مرين وسلطان مالي عبر السفارة التي سفر فيها الرحالة المشهور ابن بطوطة الطنجي لأبي عنان[41] والسفارة التي سفر فيها إبراهيم الساحلي للسلطان أبي الحسن المريني والدأبي عنان[42].

وتشير كتب التاريخ إلى الصلة التي انعقدت بين الإمام أفلح حاكم الدولة الرستمية في الجزائر وبين ملك كوكو في السودان العربي، فقد أهدى الإمام أفلح إلى هذا الملك هدية نفيسة حملها محمد بن عرفة الذي كان مثار إعجاب الملك، فتوثقت الصلات بذلك[43].

وأخبرنا ابن خلدون وكان من رجال السياسة في البلاط المريني عن استحكام هذه الصلات والعلائق الدبلوماسية بين المغرب والسودان بالحديث عن مشهد الحفل الذي حضره في قصر السلطان أبي سالم المريني عند وصول هدية ملك السودان غليه وفيها الحيوان الغريب ـ حسب تعبير ابن خلدون ـ يشير إلى الزرافة، وهو الحفل الذي أنشد فيه ابن خلدون قصيدته (الدالية) التي مطلعها[44]:

قَـدَحَـتْ يـدُ الأشـواقِ مـن زنـدي وهَـفَـتْ بـقـلـبـي زفـرةُ الـوجـد

والتي أشار في ختامها إلى هذا الوفد الأفريقي، وإعظامه للسلطان أبي

---

(41) راجع البحث القيم «سكان الصحراء الكبرى والسودان الغربي من ابن حوقل إلى ابن بطوطة» للدكتور نقولا زيادة. مجلة الفكر العربي ع51 س9. وأدب الرحلة عند العرب للدكتور حسني محمود حسين، 35.

(42) راجع كتاب الإحاطة لابن الخطيب، ومحاضرة الدكتور محمد بن شريفة «إبراهيم الساحلي ودوره الثقافي».

(43) تاريخ المغرب الكبير لمحمد علي دبوز 3: 346، 571.

(44) التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً: 74.

سالم، بعد قطع النجاد والوهاد للوصول إلى عاصمته للثناء عليه وذكر أياديه:

جاءتك في وفد الأحابش لا ... يرجون غيرك مكرم الوفد
وأفوك أنضاءَ تُقلبُهم ... أيدي السُرى بالغور والنجد
كالطيف يستقري مضاجعه ... أو كالحسام يُسَلُّ من غِمدِ
يثنون بالحسنى التي سبقت ... من غير إنكارٍ ولا جَحدِ
ويرون لحظك من وفادتهم ... فخراً على الأتراك والهند

وشبيه بهذه الهدية الأفريقية إلى ملوك الدولة المرينية الهديّةُ الأفريقية إلى ملوك الدولة الحفصيَّة، في تونس قال الألوري نقلاً عن الشيخ ابن فودي في معرض حديثه عن مملكة برنو وكانم «وكانت لهم مهاداة مع الدولة الحفصية من أولها، ووصلت هدية ملك كانم صاحب برنو من قبل طرابلس إلى تونس، وفيها الزرافة الغريب الخلق، فكان لها بتونس مشهد عظيم سنة 655»[45].

وقد تحدّث المؤرخ الفشتالي (1549م ـ 1621م) عن زيارة وديّة قامت بها بعثة رسمية من مملكة بورنو إلى المغرب الأقصى[46].

كما أشارت المصادر والمراجع إلى العلائق الأخوية، والصلات الدبلوماسية الإسلامية التي تأكدت بين دول الغرب الإسلامي ومملكة باقرمي ومملكة كانم وغيرها من الممالك والإمارات[47].

وعرف للأمير السنغالي «واراتجاي» وهو أول أمير سنغالي يعتنق الإسلام إسهاماته الكثيرة في نصرته ونشره، وقد سار سيره ابنه «لابي» الذي تولّى الحكم بعده فقد عمل على نصرة الدعوة الإسلامية في السنغال، وفي غيره من المناطق[48].

---

(45) الإسلام في نيجيريا: 30.

(46) جذور الحضارة الإسلامية: 81.

(47) الإسلام في السنغال مقال د. خيري عبد الرازق، صحيفة الدعوة الإسلامية ع854 مايو 2003.

(48) راجع «اللغة العربية ثقافتها وأعلامها في مالي حتى نهاية القرن العاشر الهجري» لعبد القادر ادريس أربون، رسالة ماجستير مرقونة، نوقشت بكلية الدعوة الإسلامية بطرابلس سنة 1997.

فقد كان عامل إسلام الملوك في بلاد السودان والعلية من القوم فيها من العوامل المهمة التي هيأت لازدهار التفاعل العقدي والحضاري والمعرفي بين الغرب الإسلامي والسودان. وبخاصّة في الطور الدعوي السلمي الذي برز فيه أعلام الغرب الإسلامي بجهد كبير على مختلف المستويات.

ومن أعلام الغرب الإسلامي الذين قاموا بهذا الدور في هذا الطور العالم والداعية علي بن يخلف النفوسي الطرابلسي الذي دعا الناس إلى عقيدة الإسلام، وبلغ من جهده أن أسلم على يديه في القرن السادس الهجري ملك غانة الوثني برمندان، كما أسلمت طائفة من رعيته[49].

ومنهم الشيخ فتح الله بوراس التونسي، أصيل القيروان ومفتيها على المذهبين المالكي والحنفي، والذي عُرف بالتبحر في العلم حيث أتقن منذ صغره اثني عشر علماً وفناً[50]، واتجه إلى الدعوة في بلاده أولاً، ثم في أفريقيا بعد أن استحال عيشه فيها، فقد رحل إلى طرابلس الغرب ومكث فيها مدّة كوّن خلالها طلاباً ومريدين استفادوا من علمه وتصوفه منهم الشيخ الدكالي دفين مدينة مسلاته[51] والشيخ عبد السلام الأسمر الفيتوري دفين مدينة زليطن[52]، ثم انتقل إلى السودان فنهض فيه بالدعوة والتعليم ونشر التصوف، إلى أن ألقى عصا ترحاله في مدينة كانو التي أنفق فيها أخريات حياته فعرف قدره، وعظمت منزلته، وظلّ على ذلك التوجيه والإرشاد في أوساطه الخاصة والعامة إلى أن أدركته منيته؛ فدفن في ديارها، ولا يزال قبره إلى يومنا هذا في أكمة (دالة)[53]، مشهوراً معروفاً، وقد زرته في سنة (1424/ 2004) فوجدته مرعياً، وقد بنى عليه الشيخ محمد الناصر كبر شيخ الطريقة القادرية قبّة ومسجداً[54].

---

(49) راجع: الأباضية في موكب التاريخ و«دور الفقهاء الأباضية في إسلام مالي»: 57.

(50) راجع «الرسالة الجلية لمكانة نيجيريا العلمية» للشيخ قريب الله كبر.

(51) م.ن.

(52) راجع «الرسالة الجلية لمكانة نيجيريا العلمية»: 37.

(53) الرسالة الجلية: 38.

(54) م.ن: 38.

ومن علماء تونس القدامى الذين سكنوا بلاد هوسا، وساهموا بالدعوة إلى الله فيها الشيخ محمد زهرة التونسي الشهير بـ«ولي ميكرغو» قيل في تحليته «وهو فريد في عهده في الحديث والإلمام بأصوله، والإدراك لأبوابه، وهو أول من جاء بكتاب الشفا للقاضي عياض والبخاري وكان يحفظ البخاري مع جميع أسانيده، وهو صوفي تقي، بل من أهل الصفا والنقا، صبور على البلوى»[55].

فقد كان لهذا الشيخ التونسي المغاربي تأثيره على أميركانو في عهده محمد الملقب بقيسوكي، وعلى عدد من تلاميذه الكنويين وغيرهم، وفي طليعتهم الشيخ عبد الله ثقة من مالي، الذي شهر بعلم الحديث[56]، كذلك نجد من أعلام الغرب الإسلامي ذوي التأثير البليغ في بلاد السودان خلال القرن التاسع الهجري الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي، نسبة إلى قبيلة مغيلة بأحواز تلمسان في بلاد الجزائر حالياً[57]، فقد حفظ المغيلي القرآن الكريم في مسقط رأسه، وشرع في تلقي العلم على شيوخه البارزين من أمثال الشيخ عبد الرحمن الثعالبي، ويحيى بن بدير، ثم تصدر للتعليم فكان له تلاميذ بارزون تأثروا بعلمه وتصوفه الذي أخذه عن شيخه الثعالبي، ومن أبرز هؤلاء التلاميذ المغاربة الذين أفادوا منه محمد بن عبد الجبار الفجيجي، وأيد أحمد، والعاقب الأنصمني[58]، ولم يكن دور المغيلي ـ كما يشهد تاريخه ـ محصوراً في دائرة الإقراء والتعليم، وتكوين الطلاب والمريدين فحسب، بل تميّز دوره في بلاده الجزائر على عهد الدولة الزيانية المنهارة، وفي المغرب الأقصى على عهد الدولة المرينية[59] ـ بالطابع العملي والحركي المتمثل في الخروج لتوجيه حركة المجتمع وحياته، ومحاربة الفاسد الظاهر فيه، وتوجيهه بالشرع ليكون الطابع الغالب عليه طابعاً

(55) الرسالة الجليّة لمكانة نيجيريا العلمية: 39.

(56) م. ن: 39 ـ 41.

(57) ذكر في كتاب «الرسالة الجلية»: 38، 39 أن القبيلة مغيلة قبيلة بربرية في المغرب الأقصى، وهو خطأ.

(58) أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة: 144.

(59) أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة: 144 وما بعدها.

إسلامياً، وإصلاح ما دهم كيانه من انحلال وتعفن، وسيطرة الأجنبي الدخيل من يهود وغيرهم.

والذي لا شك فيه أن حركة الداعية المسلم محمد بن عبد الكريم المغيلي أحدثت تأثيرها البليغ والمؤثر في المجتمعين الجزائري والمغربي، إلا أنها ألبت عليه، وأثارت على ثورته وحركته أحقاد خصومه من الحكام وعلمائهم الرسميين والعامة؛ فاضطره ذلك إلى هجرة الغرب الإسلامي، وأغرى مسيره إلى ضرب آباط الإبل مع جملة من تلاميذه إلى بلاد السودان بلاد الهوسا والتكرور في غرب أفريقيا[60] ليواصل فيها دعوته إلى الإسلام، وعمله في نشر العلم والإرشاد، وتوجيه الرعاة والرعية إلى السبيل الأقوم؛ فاستقر بمدينة تيقدا (تيغزه)[61] ثم انتقل إلى مدينة كنو وكاتسنا، حيث تزوج وأنجب، واتصل فيها بأميرها أبي عبد الله محمد بن يعقوب وكتب له رسالة سماها «جملة مختصرة فيما يجور للحكام في ردع الناس عن الحرام»[62].

ويبدو أن الطريقة التي اختارها المغيلي للتفاعل مع هذا الوسط الأفريقي الهوسوي ـ من خلال ما مرَّ به من تجارب دعوته في بلاده والمغرب ـ تجسدت في مبدأ تحسين الصلة بالحاكمين والأمراء والكبراء، ضرورة أن الله «يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن» يدلنا على ذلك ما ذكرناه من صلته بالأمير أبي عبد الله محمد بن يعقوب في كاتسنا[63]، وكتابته رسالته التوجيهية له، وأيضاً بالسلطان (أسكيا محمد)[64] الذي كتب له أيضاً وصايا سياسية وفتاوى دينية كما كتب لسلطان كنو أكثر من وصيّة، وقد ركزت هذه الوصايا والرسائل ـ حسبما يظهر من وصاياه إلى أميركنو التي وصلت إلينا[65].

---

(60) أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة: 151، 152.

(61) م.ن: 152، الإسلام في نيجيريا: 88، 89.

(62) م.ن.

(63) الإسلام في نيجيريا: 83.

(64) م.ن: 75، 89.

(65) م.ن: 83.

وقد كان لهذه الوصايا في الأحكام والسياسة الشرعية وغيرها تأثيرها البعيد في سلاطين بلاد الهوسا أو بلاد التكرور وأمرائها الذين عملوا على إنفاذها في مجتمعاتهم، وعلى إصلاح حال الإسلام والمسلمين بها في ديارهم[66].

وقد امتد هذا التأثير لوصايا محمد المغيلي منذ عصره في عهد السلطان محمد رمفا إلى عصر الدولة العثمانية الفودوية التي تأثرت هي الأخرى بآثاره العلمية في القرن الثامن عشر الميلادي، قال الشيخ قريب الله الكبرى الكنوي في بيان هذا التأثير «ويمكن الحكم بأن الدولة الفودوية قامت على الأسس التي وضع أصولها الإمام المغيلي؛ لأنَّ الشيخ عثمان بن فودي يُعد مرجعاً مهماً، كما أن كلَّ من معه يتمسكون برسائله وفتاويه»[67].

كما تكامل هذا التأثير المغيلي أيضاً بما كان ينهض به في أوساط المسلمين في هذه البلاد والبلاد الأفريقية الأخرى التي مرَّ بها في الذهاب والإياب وبخاصة في طريق عودته النهائية إلى وطنه مغيلة إذ مرَّ بتمبكتو في مالي حيث تفاعل مع إصلاحه الراعي والرعية.

على أن واجب الدعوة إلى الإسلام، وترسيخ العقيدة الإيمانية لم ينته بانتهاء تلك الطبقة المباركة في القديم، وإنما استمر دوره وتأثيره إلى العصر الحديث من قبل علماء الغرب الإسلامي، ويكفي أن نشير إلى أدوار المعروفين والمجهولين من أولئك العلماء من خلال الحديث عن دور الداعية الليبي الشيخ محمد المهدي الخطابي وحركته المعدودة امتداداً لدور الأسلاف من المغاربة، فقد أسس عديداً من الزوايا والجوامع في ليبيا وأيضاً في البلدان المجاورة لها من أفريقيا من تشاد والنيجر ونيجيريا، وكلّف بمهام الدعوة ونشر الإسلام والعربية عدداً من إخوانه من العلماء الليبيين الذين وجدت جهودهم في أواخر القرن التاسع عشر استجابة من الحكام والسلاطين في النيجر وواداي وتشاد ونيجيريا وغيرها من مناطق السودان الأوسط والغربي فأفسحوا له المجال

(66) م.ن. جذور الحضارة الإسلامية في الغرب الأفريقي: 88.

(67) المرآة الصافية في بيان حقيقة التصوف: 104.

للتفاعل العقدي بنشر الإسلام الحنيف، وساعدوه على بناء الزوايا والمساجد لتدريس علوم المقاصد وعلوم اللغة بل دلنا أحد تلاميذه الشيخ محمد عبد الله السنّي على مسارعتهم إلى طلب عونه في دعوة قومهم إلى الدين القيم، قال ـ رحمه الله تعالى ـ في رسالة المؤرخة بتاريخ 14 من محرم سنة (1315/ 1997) إنه استجاب «لرغبة سلطان زندر أحمد بن السلطان تنيم بإبلاغه وقومه دين الله»[68].

كما استجاب هذا الداعية الليبي المسلم في السنة المذكورة بإشارة من شيخه «لطلب سلطان واداي في أن يرسل إليه وإلى مواطنيه الوثنيين دعاة مرشدين، يدعونهم إلى الدين الحنيف»[69].

وقد عبّر الشيخ محمد السُّني عن ارتياحه الكبير، وابتهاجه الغامر بأثر دعوته في زندر وواداي، وعن التفاعل العقدي، والانجذاب الروحي لما قام به حيث قال: «وقد حصل إقبال عظيم من العرب والعجم؛ فالكلُّ لدعوتنا مهطعون، وها نحن بصدد الجدِّ والاجتهاد، فيما يصلح حالهم، ويؤلف كلمتهم المختلفة»[70].

وقد تنامت دعوة السيّد محمد المهدي في أماكن مختلفة من الديار الأفريقية إلى أن وصلت إلى كانو في نيجيريا، في عهد أمير كانو علي الأمر الذي لفت إليه وإلى اتباع طريقته الصوفية العقدية أنظار المستعمرين الأوروبيين، وشرعوا منذ بداية القرن العشرين في محاربته، ومقاومة طريقته ونزعته، قال الأستاذ الطيب الأشهب بعد الحديث عن جهوده وعن زواياه الفاعلة في السودان الأوسط والغربي: «بمجرد وصول السيّد المهدي إلى قرو، وحط رحاله هناك،

---

(68) راجع كتابنا الشيخ محمد عبد الله السُّنّي (ترجمته وتحقيق ما تبقى من آثاره) من منشورات مركز جهاد الليبيين.

(69) م.ن. وراجع بحثنا «العلاقات الليبية مع أفريقيا في أواخر القرن التاسع عشر كما يجسدها دور داعية مسلم» أعمال «ندوة التواصل الثقافي الاجتماعي» كلية الدعوة الإسلامية بطرابلس.

(70) الشيخ محمد عبد الله السُّني (ترجمته وتحقيق ما تبقى من آثاره) وبحثنا المذكور والمنشور ضمن أعمال ندوة التواصل.

أخذ ينشر دعوته الإسلامية الدينية، وأخذ الشعب السوداني يعتنق مبدأه بكل سرور وطوع»[71].

وقرّر أن عمله الدعوي أحنق أعداءه ولفت أنظار الصليبيين إليه كما تقدّم «فجهزت حملة عسكرية، وهجمت بها على زاوايه علالي»[72] فكانت تلك الهجمة بداية النهاية لعمل الحركة في بلدان السودان.

وكما برزت ليبيا بهذه الحركة العقدية الإسلامية في أخريات القرن التاسع عشر الميلادي، برزت دون غيرها في أخريات القرن العشرين بأمر الدعوة، ومواصلة العمل في الإبلاغ والتواصل مع أفريقيا من خلال المشروع الطموح لجمعية الدعوة الإسلامية العالمية المُسمَّى «برنامج ما بعد كانو»[73] فقد رصدت لهذا المشروع الأموال الوفيرة، والجهود الكبيرة؛ لنشر الإسلام والدعوة إليه، والرقي باللغة العربية، وتقوية الأواصر مع البلدان المستهدفة بالمشروع، وهي: تشاد والنيجر في السودان الأوسط، ومالي ونيجيريا وبوركينا فاسو في السودان الغربي[74]، ومن أهداف المشروع وآلياته طباعة القرآن الكريم، وكتب المناهج والمقررات الدراسية في المستويات المختلفة للتعليم العام، وتوزيعها على الكتاتيب والمدارس، وإرسال الأساتذة للتدريس في التعليم العام، والدكاترة في التعليم الجامعي والتعليم العالي وإيفاد الخبراء في المجالات العلمية المختلفة، والتعاقد مع المعلمين المحليين، وإنشاء المساجد والجوامع والمدارس والمنارات العلمية، وإقامة الندوات والمؤتمرات والحلقات الدراسية لمعالجة قضايا المسلمين ومشكلاتهم، وإعطاء المنح الدراسية لطلاب هذه البلدان الأفريقية لمواصلة الدراسة الجامعية والعليا في كلية الدعوة الإسلامية، والكليات التخصصية الأخرى في الجامعات الليبية[75].

---

(71) برقة العربية أمس واليوم: 241.

(72) م. ن.

(73) تأسس هذا المشروع بعد صلاة أول جمعة في محرم الحرام سنة 1997، وتمت متابعته والإشراف عليه من جمعية الدعوة الإسلامية العالمية.

(74) مطوية جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، «برنامج ما بعد كانو».

(75) راجع مطوية جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، «برنامج ما بعد كانو».

ويتصل بهذا الجانب الديني العقدي الدور الفعال الذي قام به الغرب الإسلامي من خلال الطرق الصوفية التربوية التي شاعت في ربوعه، ثم امتدت إلى ديار أفريقيا، حيث نهضت هذه الطرق منذ القديم إلى العصور الحاضرة بدورها الدعوي والتهذيبي والتعليمي والروحي، وتوجيه الأفارقة المسلمين إلى آفاق الاستقامة والعمل الدنيوي والأخروي[76].

ومن أهم هذه الطرق والمذاهب الصوفية التي وصلت إلى السودان الأوسط والسودان الغربي الطريقة القادرية، والطريقة العروسية السلامية والطريقة التجانية، والطريقة السنوسية[77] والطريقة المدنية.

فقد عملت هذه الطرق الصوفية مجتمعة على استمرارية الدعوة إلى الإسلام، وتنظيم صفوف المسلمين، والمثابرة على توجيههم نحو طرق الصلاح.

ولئن كانت الطريقة القادرية المنسوبة إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني أو الجيلي مشرقية المنبت؛ فإنها انتقلت ـ كما تدلُّ الإشارات التاريخية ـ إلى بلاد السودان أو بلاد التكرور عن طريق علماء من الغرب الإسلامي، وبخاصّة من المغرب الأوسط «الجزائر» ذكر الدكتور أحمد شلبي أنَّ القادرية دخلت «أفريقيا الغربية في القرن الخامس عشر على يد مهاجرين كانوا يتخذون من توات Tuat مركزاً لهم، وهي واحة في النصف الغربي من الصحراء، ثم انتقل هؤلاء إلى ولاته Walata؛ فجعلوا منها أَول مركز لطريقتهم ومنها ـ بعد حين انتقلوا إلى تمبكتو[78].

وفي الحقِّ أن علماء ودعاة وتجاراً آخرين جاءوا إلى السودان الأوسط والغربي قبل هذا التاريخ بالطريقة القادرية يكفي أن نذكر منهم العالم الجزائري

---

(76) راجع موسوعة التاريخ الإسلامي لشلبي الإسلام في نيجيريا للألوري جذور الحضارة الإسلامية في الغرب الأفريقي الباري.

(77) راجع: الإسلام في نيجيريا: 42 ـ 46.

(78) موسوعة التاريخ الإسلامي 6: 212، 213.

الشيخ محمد عبد الكريم المغيلي[79] من علماء القرن التاسع الهجري الذي أشارت المراجع إلى إدخاله هذه الطريقة الصوفية في هذه الربوع، كما أن دعاة وعلماء غيره وتجاراً من المغرب الأدنى طرابلس الغرب وتونس جاءوا هم أيضاً قبل القرن الخامس عشر الذي أشار إليه الدكتور أحمد شلبي ومن هذه الشخصيات القديمة التي ساهمت في نشر الطريقة القادرية من الغرب الإسلامي الشيخ أحمد البكاي والشيخ يحيى الصرصوري الطرابلسي، والشيخ التأررازي والشيخ سيدي بابا[80] والشيخ محمد المحمود المغربي[81].

كما جاءت بعد القرن المذكور في إشارة الدكتور شلبي جماعات شتى من الغرب الإسلامي عملت هي الأخرى على نشر الطريقة في السودان الأوسط والغربي.

على أن الطرق الصوفية الأخرى غير الطريقة القادرية ذات المنبت المشرقي ـ كما تقدّم ـ تمثل طرقاً صوفية توجيهية ذات جذور مغاربية، إذ نشأت ونمت وازدهرت في الغرب الإسلامي بأقطاره المختلفة، ثم نقلها دعاتها من العلماء المغاربة والأفارقة على حدٍّ سواء إلى بلاد السودان، فكتب لها بفضل خصوصياتها الروحية والتهذيبية، بل والعملية الانتشار والاستمرارية والتأثير.

ومن أقدم هذه الطرق الصوفية المغاربية التي وصلت إلى السودان بقسميه الطريقة العروسية الشاذلية[82] والطريقة التجانية[83] والطريقة السنوسية[84] والطريقة المدنية[85] وغيرها من الطرق الصوفية التي ساهمت في الرقى بالجانب الروحي والتربوي.

---

(79) راجع «أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة» للدكتور يحيى بو عزيز.

(80) الإسلام في نيجيريا: 44.

(81) م.ن: 44.

(82) راجع د. عبد الحليم محمود «أبو الحسن الشاذلي» ود. جودة المهدي «أعلام التصوف»: 474.

(83) راجع بحث الشيخ اسماعيل إبراهيم خليفة «الرحيق المختوم في مساهمة طريقة القطب المكتوم» الذي شارك به في ندوة اللغة العربية والتربية الإسلامية في دول الساحل الأفريقي 2002ف.

(84) الطيب الأشهب «محمد بن علي السنوسي» «محمد المهدي» «أحمد الدجاني» السنوسية.

(85) وهي الطريقة التي نشأت في مصراته بطرابلس الغرب على يد الشيخ محمد ظافر المدني.

أما الطريقة التجانية فهي نسبة إلى الشيخ الشريف الحسيني أحمد بن محمد التجاني المولود سنة (1150/ 1737)[86] وهو جزائري الأصل، ثم قدم إلى فاس فاستوطنها حيث نشر طريقته الصوفية، وتوفي بها عام (1230/ 1814)[87] وقد انتشرت طريقته في الغرب الإسلامي، وفي بلاد السودان وغيرها من أصقاع الأرض «وأعظم من نشر هذه الرابطة في غرب أفريقيا هو الحاج عمر الفوتي الذي ولد 1798م، وأخذ الطريقة من الشيخ علي حرازم صاحب جواهر المعاني والتلميذ الأكبر للشيخ أحمد التجاني»[88] وهو من علماء التصوّف الكبار في المغرب الأقصى.

وبعد نشره للطريقة في السنغال اتصل بالأمير محمد بلوفي صكتو بنيجيريا فعرّفه بها، وكان من أتباعها زمناً، ومن أعلامها المغاربة الذين نشروا أذكارها وأورادها وتعاليمها وأجازوا فيها الشيخ أحمد سكيرج، وقد صارت إجازاته معتمد الطريقة في المغرب وأفريقيا وحفيد صاحب الطريقة المسمى أحمد التجاني، قال الأستاذ عبد الله آدم الألوري:

«وقد زار نيجيريا 1948 الحفيد الرابع أحمد التجاني السيد ابنعمر، ولقي الحفاوة البالغة لدى المسلمين والتجانيين خصوصاً»[89].

ومن أعلامها الأفارقة الذين قاموا بها الشيخ عمر الفوتي الذي توجّه إلى برنو وبلاد الهوسا، حيث كثر أتباعه وأنصاره فيها، كما استطاع ـ بعد ذلك ـ أن يؤسس مملكة واسعة، امتدت رقعتها من تمبكتو إلى المحيط الأطلسي[90] ثم خلفه أحمد شيخوا بن الحاج عمر وابن أخيه، وواصلا مسيرة عمر الفوتي في نشر التجانية في مواطن أخرى في النيجر ومالي وغينيا والسنغال وغمبيا[91]،

---

(86) الإسلام في نيجيريا: 44.

(87) راجع اسماعيل إبراهيم «الرحيق المختوم في مساهمة طريقة القطب المكتوم».

(88) الإسلام في نيجيريا: 44.

(89) الإسلام في نيجيريا: 45.

(90) جذور الحضارة الإسلامية في الغرب الأفريقي: 185.

(91) م. ن.

ومن كبار رجال هذه الطريقة المحدثين الشيخ إبراهيم انياس الكولخي ومحمد الثاني ابن الحسن كافنغا وأحمد التجاني ابن عثمان الكنوي والحاج محمد السنوسي والحاج عبد الله سلغا والشيخ أبو بكر العتيق والشيخ عثمان والقلنسوي والشيخ محمد الرابع والد اسحاق رابع ومحمد غيريم وغيرهم[92] كذلك تنتسب الطريقة السنوسية في الأصل إلى الجزائر من المغرب الأوسط، إذ تنسب إلى مؤسسها الأول الشيخ السنوسي العربي، ثم إلى حفيده المجدّد الشيخ محمد بن علي السنوسي الذي ينمي إلى الأدارسة الأشراف، وقد ظهرت هذه الطريقة الصوفية ظهورها الفعلي في البيضاء والجغبوب من أراضي ليبيا، حيث انتشرت في ربوعهما وفي ربوع برقة والجبل الأخضر وطرابلس الغرب[93] ثم بدأت في التوسع في أخريات عهد هذا الشيخ المجدّد، إلى أن بلغت ذروته على عهد ولده السيّد محمد المهدي[94]، فبلغت إلى أنحاء واسعة من أرض السودان في وادي وتشاد وفي كانم والنيجر وباجرمي وبرنو وكانو، حيث أسست الزوايا السنوسية الكثيرة للدعوة والتوجيه مثل زاوية واداي وزاوية أرضا وزاوية علالي وزاوية وجنقة الصغرى وزاوية وجنقة الكبرى وزاوية فاية، وتعرف بزاوية (ون) وزاوية كلك وزاوية برنو وزاوية كنو في نيجيريا[95] والحقيقة التي لا معدي عن ذكرها وتقريرها هنا أنَّ الطريقة الخطابية بل السنوسية قد شاركت بقية الطرق الصوفية في مناهجها التعليمية والروحية والتربوية، ولكنها أربت عليها بمظاهر عملية أخرى برزت بها طرائقها في بلاد السودان الأوسط والغربي، منها مقاومة الاستعمار الفرنسي والاستعمار الإنجليزي في هذه البلاد زيادة على مقاومتها الاستعمار الإيطالي في بلادها، فقد اشتركت في معركة «زاوية علالي» في النيجر

---

(92) راجع بحث أو مقالة الشيخ إسماعيل إبراهيم خليفة «الرحيق المختوم في مساهمة طريقة القطب المكتوم».

(93) برقة العربية أمس واليوم للطيب الأشهب.

(94) راجع كتاب الطيب الأشهب «محمد المهدي».

(95) راجع كتاب «حاضر العالم الإسلامي» وكتاب «الشيخ محمد عبد الله السني وتحقيق ما تبقى من آثاره».

ضد الاستعمار الفرنسي برئاسة السيد محمد البراني الساعدي[96] كذلك اشترك هؤلاء المجاهدون من أتباع الطريقة السنوسية في معارك حامية أخرى في كانم وبحر الغزال التي تكبد فيها الفرنسيون خسائر كبيرة[97]، وقد كان الطوارق الذين وفدوا من زندر وقبائل الفرغان والمحاميد قوة ضاربة إلى جانب أتباع الطريقة المذكورة[98] وذكر أحمد الدردير الحضيري أن الشيخ محمد عبد الله السنيّ وكاوصن الأفريقي من النيجر قد جاء إلى فزان في جنوب ليبيا سنة 1914 لتحريرها من الاستعمار الإيطالي، كما واصلا زحفهما إلى منطقة غدامس[99] ولا يفوتنا في ختام هذا المبحث أن نشير إلى طريقة صوفية أخرى هي الطريقة المدنية التي كان لها أثرها في بعض أعلام مصر وتونس الكبار[100] وامتد أثرها إلى اسطمبول حينما أصبح أحد رجالها شيخاً لسلطان الدولة العثمانية عبد الحميد الثاني، وقد وصل أثرها أيضاً إلى السودان الأوسط والغربي ولكن في نطاق محدود جداً، وهو ما يستفاد من القصيدة التي مدح بها الشيخ عبد القادر القرقري إمام جامع برنو الشيخ العارف بالله محمد حسن ظافر الطرابلسي المتوفى (1263/ 1846) والتي يقول فيها حسب رواية أحمد النائب الأنصاري صاحب كتاب المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب[101]:

بلغ تحية عاشق مشتاق وسلام ذي كلف إلى السباق
شمس الهدى بدر الدجى مروي الصدي بحر الندى المدني الإمام الراقي
أحييت من سرّ الطريقة ما عفا ونشرته في سائرْ الآفاق

---

(96) راجع برقة العربية أمس واليوم: و«المهدي السنوسي» للطيب الأشهب، و«حاضر العالم الإسلامي» تعليق الأمير شكيب أرسلان.

(97) م. ن: 244.

(98) م. ن: 244.

(99) المسك والريحان: 35.

(100) راجع بحثنا عن «الشيخ محمد عبده وصلاته بأعلام المغرب العربي» ضمن أعمال الندوة الدولية بالقاهرة حول شخصية الشيخ محمد عبده، تنظيم منظمة الايسسكو 2002.

(101) الإسلام في نيجيريا: 71.

فهذا المدح يدل من قريب على أن بعض علماء أفريقيا عرفوا الطريقة المدنية وبعض شيوخها.

تلك هي أهم الطرق الصوفية التربوية الروحية[102] التي أخذها أهل السودان الأوسط والسودان الغربي عن الغرب الإسلامي، والتي أدت أدوارها التعليمية والدعوية والاجتماعية، والتي لا يزال أثر كثير منها التهذيبيُّ والتوجيهيُّ باقياً إلى يومنا هذا.

ومن الملاحظ أن السودان الأوسط والسودان الغربي لم يتأثرا في تصوفهما من طابع التصوّف في الغرب الإسلامي، ومن مناهجه المتباينة، وتياراته المختلفة إلا بالتصوف الطرقي أو السني التربوي المسمَّى تصوف الرقائق، ولم يتأثرا ـ حسبما انتهى إلينا من تأليف أعلامهما عبر العصور ـ بالتصوف الفلسفي التأملي المسمَّى تصوف الحقائق.

ثانياً ـ التفاعل الحضاري:

نعني بالتفاعل الحضاري أشكال التواصل الإنساني والبشري الذي تأكَّد بين الغرب الإسلامي وبلاد السودان في المجالات المدنية التي تتصل بحياة الإنسان ورقيِّه ومعيشته الاجتماعية والسياسية والتجارية والمعمارية والفنيّة ونحو ذلك.

وما من ريب في أنَّ هذا التواصل البشري والتواشج الإنساني بين الشمال والجنوب في هذه المجالات، قد نشأ في الأصل عن رسوخ العامل العقدي الإسلامي الذي قوَّى ـ كما ذكرنا ـ الأواصر الروحيّة والنفسيّة، وسهَّل ظروف التواصل بين هذه الشعوب؛ فسكان الشمال من عرب وبربر وطوارق، عرفت لهم صلات وثقى بأهل السودان من الزنوج في جنوب الصحراء، وهو ما شجَّع

(102) راجع الإسلام في نيجيريا، الرسالة الجلية، جذور الحضارة الإسلامية في الغرب الأفريقي، أعمال ندوة التواصل الثقافي والاجتماعي بين الأقطار الأفريقية.

على هجراتهم المتواصلة، وأسفارهم المتعدِّدة إلى أقاليم بلاد السودان المختلفة، واقتحام الصحاري القاحلة الفاصلة، والاستهانة من أجل المعايش والتعرف والتفاعل الحضاري ـ بظروف الجفاف فمضت قوافلهم التجارية تقطع الفيافي، وجاءت منذ ذلك الفتح الإسلامي تترى بالتجارة والصفق، وتبادر السلع والمنافع على النحو الذي عرفه قدماؤهم قبل مجيء الإسلام، وقد أشار الأستاذ أحمد عطية الله إلى دور التجار في تحقيق هذا التقارب والتواصل، وألمح إلى الطريق البرّية ـ التي توسعت الدراسات في تفصيل دروبها ـ التي كان يسلكها المغاربة والسودانيون للبيع والشراء، ونشر الدين والعلم[103]، ومن أهم هذه الطرق في تقريره «الطريق الذي يبدأ من فاس أو تلمسان إلى سجلماسة فادرار فتمبكتو، والطريق من تلمسان إلى مكة الجديدة وطريق القيروان أو طرابلس إلى غدامس فتمبكتو»[104] قال «كما سلك الإسلام مع التّجار إلى السودان الأوسط وبحيرة تشاد عدَّة طرق، أهمها الطرق المهديّة وطرابلس إلى مرزق فكوكا، والطريق من طبرق إلى واداي مخترقاً أوجلة والكفرة»[105] على أنَّ هذه التجارة النشيطة مع جنوب الصحراء لم تقف عند حدود الشمال الأفريقي فحسب، بل امتدت إلى أبعد من ذلك إلى أن وصلت إلى صنلية والأندلس وأوروبا والمشرق[106].

وقد تنوَّعت السلعُ والبضائعُ التي كان يحملها الغرب والطوارق من الجنوب إلى الشمال؛ فكان منها الذهب المستورد من غانة وجنوبها، والجلود والعاج والكولا والصمغ والعسل والقطن وغير ذلك، كما أنَّهم كانوا يجلبون إلى هذه الأقاليم أحمال الملح والملابس والنحاس الأحمر وضروب الأفاوية والعطور والحديد المصنوع[107] ولم تكن تلك الطرق التجارية الرابطة بين

(103) القاموس الإسلامي 3: 552.

(104) القاموس الإسلامي 3: 552.

(105) م.ن: 3: 552.

(106) الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس: 281، 282.

(107) م.ن: 283، 284.

الشمال وجنوب الصحراء مقتصرة ـ في العهد الإسلامي ـ على مجرد التجارة والصفق، والتي تتم أحياناً بما يُسمَّى التجارة الصامتة[108] فحسب، بل كانت أيضاً طرقاً ومنافذ حيويّة للهداة والدعاة، وحملة ألوية الحضارة الإسلامية ـ كما تقدّم ـ وسبيلاً مؤثراً للعلماء والشيوخ الذي نشروا الثقافة والعلم، والمعرفة واللغة العربية في بلاد السنغال ومالي وغانة والنيجر وتشاد وبرنو وكانم كما سيأتي.

فقد استقرَّت الطوائف المغاربية في أجزاء مختلفة من بلاد السودان، وكوَّنت باستقرارها أحياءً ومدناً في القديم والحديث.

ولقد ذكر رحَّالة قدامى هذا الوجود الوافد من الشمال إلى الجنوب، وأشاروا إلى تجاورهم واختلاطهم بالمجتمعات السودانية إذا أشار الرحالة البكري إلى وجود الحيّ الإسلامي والحيّ الوثني متجاورين في عهد سلطان غانة الكافر كما أشار إلى ما رآه من المساجد والجوامع في الحيّ المذكور[109].

ولاحظ الرحَّالة المغربي ابن بطوطة الطنجي في زيارته بلاد السودان وجود جالية مغربية منتظمة، ورئيسها سعدي بن علي الجزولي الذي كان يشغل رتبة شيخ المغاربة، ومغاربة آخرين تتوزّعهم جهات ومناطق أخرى من السودان، كان كبير جماعتهم في مالي محمد بن الفقيه الجزولي، وقاضيهم أبا العباس الدكالي ومحمد الفيلالي إمام مسجدهم، وذكر أن إبراهيم إسحاق الجاناتي كان قاضي مدينة تكدّ[110].

ولم تكن تلك الأحياء في أقاليم السودان الغربي التي كانت تسمّى أحياء «البيضان» مقصورة على الجماعات الوافدة من المغرب الأقصى فحسب ـ كما جاء في رواية ابن بطوطة الطنجي ـ بل كانت تشمل الجاليات أو المهاجرين

---

(108) الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس: 284.

(109) راجع «رحالات أندلسيون ثلاثة ـ البكري، الإدريسي وابن جبير» للدكتور جرير أبي حيدر. مجلة الفكر العربي ع51 س9.

(110) تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار لابن بطوطة.

القادمين من المغرب الأدنى مثل أهل غدامس الطرابلسيين الذين تعرّف عنهم ابن بطوطة وكانوا قادة قافلته وأهل تونس والمغرب الأوسط مثل أهل تلمسان والمناطق الأخرى من الجزائر.

وشبيه بتلك الأحياء والهجرات المغاربية إلى السودان الغربي التي حلّت بتلك الأحياء التي أقاموها في مدينة أهير والتي «تسكنها قبائل ليبية من مدينة أوجلة»[111].

ومن المعروف تاريخياً أن بني هلال بن عامر صعصعة، وبنو سليم بن منصور دخلوا عن طريق مصر إلى بلاد المغرب بتقسيماتها المذكورة فيما يعرف بهجرة بني هلال وهجرة بني سليم في النصف الأول من القرن الخامس الهجري، وامتزجوا بالسكان فيها، وتوغلوا إلى أن وصلوا إلى مناطق الطوارق أو البربر، وأنشأوا في عديدٍ من نواحي الغرب الإسلامي والغرب الأفريقي «الإمارات الصغيرة العربية حيناً، والعربية البربرية حيناً أو العربية الأفريقية الفولانية حيناً»[112] فكان دخولهم وامتزاجهم العرقي القديم صورة من صور التفاعل الاجتماعي الذي ترك طوابعه على البنية الاجتماعية والحضارية في أرض السودان أو بلاد التكرور.

كما ساهم في تشكيل لون هذا النسيج الاجتماعي الحضاري أيضاً المهاجرون القادمون من الفردوس المفقود «الأندلس»؛ ولكن على قلّة كان ذلك في عهد الدولة المرابطية والدولة الموحدية والدولة السعدية، ثم أعقابهم ونسلهم فيما بعد، قال الأستاذ محمد لبيب البتنوني «وقد ذكر بعض السيّاح أخيراً أنّه شاهد بجوار تمبكتو قبيلة اسمها «أندلوز»، ولا بدَّ أن تكون من فلول غرب الأندلس»[113].

ومن الشخصيات الأندلسيّة التي وصلت إلى كنو بنيجيريا في القديم

---

(111) صحيفة الدعوة الإسلامية العدد 846/ 2003.

(112) د. حسين مؤنس «غرب أفريقيا الإسلامي» ج60/ 1986.

(113) رحلة الأندلس للبتنوني: 101.

شخصية السيدة أم هاني الأندلسية، وهي صاحبة القصيدة التي خمسها الشيخ محمد بن جبريل إدريس[114]، ولا يمكننا بحال أن نتصور أن هذه الأديبة التي ساهمت في الحركة التعليمية والأدبية بكنو قدمت إلى هذه المدينة وحدها، وإنما يمكننا أن نتصورها أنها جاءت إليها ضمن أسرتها أو ضمن هجرة أسر أندلسية أخرى.

ولم يكن هذا التواصل بهذه الهجرات، والاختلاط البشري مقصوراً على ما ذكرناه منها، وأخبرنا به التاريخ في القديم فحسب، بل نجد تياراته وزرافاته ممتدة إلى العصر الحديث أيضاً من مختلف بلدان الغرب الإسلامي، إما بسبب البواعث المذكورة آنفاً، أو نتيجة الفتن والحروب، وقد أخبرنا الشيخ محمد عبد الله السنّي ـ من أعلام ليبيا المحدثين[115] ـ في رسالة من رسائله الأفريقية كتبها من مهجره بتاريخ 22 من محرم الحرام سنة (1314/ 1896) أنه التقى في السودان الأوسط «تشاد» مهاجرين ليبيين من «أولاد سليمان ورفلة وقذاذفة ومغاربة وغيرهم»[116] كما أخبر في رسالة أخرى عن وجود مهاجرين ليبيين من الزنتان وورفلة وقدادفة وقنطرار[117].

وقد رأينا في مدينة كنو بنيجيريا حياً يُسمّى «دندلي تروا»، وحياً آخر يُسمَّى «الفندقي» سكنهما المهاجرون الليبيون، ولا تزال بقايا نسلهم فيهما إلى يومنا هذا مما يؤكد حالة الهجرة وامتداد أثرها.

وما من ريب في أن استقرار الجماعات والأفراد من الدعاة والعلماء والتجار المغاربة في المناطق الواقعة جنوب الصحراء، وأنَّ الرحلات المتبادلة في الأغراض المختلفة بين بلدان الغرب الإسلامي والسودان الأوسط والغربي، قد أنتجت مظاهر من الاختلاط والامتزاج والتعارف النفسي والاجتماعي، كما

---

(114) الرسالة الجلية لمكانة نيجيريا العلمية: 61.

(115) راجع كتابنا «الشيخ محمد عبد الله السُّنّي» وبحثنا حوله في أعمال ندوة التواصل الثقافي والاجتماعي بين الأقطار الأفريقية.

(116) م. ن.

(117) م. ن.

نشأت عن ذلك ـ ضرورة ـ المصاهرة والتمازج العرقي هنا وهناك فبرزت بذلك طبقة المولدين التي أخذت من خصائص الأجناس في الشمال والجنوب.

وقد أومأنا قبلاً إلى بداية هذا الامتزاج بالإشارة إلى زواج الفاتح العظيم عقبة بن نافع من بنت المالك الأفريقي الرومي المسماة «بج منغ» التي «ولدت له أولاداً نشأوا في بلاد أمهم، وتكلموا بلغته»[118] كما لا يستبعد أن يكون بعض قادته وجنده تزوجوا أيضاً من بنات بلاد السودان.

والناظر في تاريخ المسلمين في السودان الأوسط والغربي، أو تاريخ بعض الأسرة العلمية والنافذة فيهما، يرى مقدار اعتزاز كثير من هذه الأسر بانتسابها إلى عقبة بن نافع واعتزازها بنسبها منه، وعلى سبيل المثال لا الحصر؛ فإن أُسرة «آل نياس» في كولخ بالسنغال، ومن مشاهيرها في العصر الحديث الشيخ إبراهيم عبد الله نياس شيخ الطريقة التجانية في عموم أفريقيا[119]، تعتد وتعتز بأنها من سلالة عقبة بن نافع، ومن الطريف في هذا الاعتزاز ما يذكره الشيخ محمد نياس شقيق الشيخ إبراهيم في عبارته المشهورة «نحن عرب سودتنا الأمهات»[120]، وأغلب الظن أن أسراً كثيرة في بلاد التكرور تعتد بأجدادها هذا الاعتداد الذي تدل به على العلائق والوشائج الوثيقة الرابطة بين المسلمين في السودان الفاتحين والطارئين عليه من الغرب الإسلامي خاصّة، كما تحقَّق في سير العلماء والتجار السودانيين التكروريين الذي رحلوا في هجرات عسكرية من أقطار السودان الأوسط والغربي إلى بلدان الغرب الإسلامي عبر العصور والأحقاب الممتدة، فقد استقرَّ كثير منهم في تلك البلدان، وأصهروا وتزوجوا فيها.

ولقد أتيح لي أن أزور كثيراً من تلك الأقطار والبلدان في الغرب الإسلامي والبلاد الأفريقية في السودان الأوسط والسودان الغربي، مما هيأ لي الفرصة

---

(118) تزيين الورقات. لعبد الله بن فودي.

(119) راجع مقابلتنا معه في مجلة جوهر الإسلام التونسية ع س.

(120) الخليل النحوي «أفريقيا المسلمة ـ الهوية الضائعة د. خليل عبد الرزاق «الإسلام في السنغال» صحيفة الدعوة الإسلامية ع854.

للوقوف عن كثب على هذه الظاهرة الاجتماعية، من الامتزاج العرقي، والتعارف البشري بين سكان الشمال والجنوب، ورؤية طبقات المولدين ذوي السمرة الجميلة من نتائج هذا التزاوج والاختلاط والتصاهر الطبيعي بين تلك الأجناس والأعراق.

ويكفي أن أضربَ هنا ـ على هذه المصاهرة التي تستعصي أمثلتها الماثلة على العدِّ ـ مثلين دالين طريفين من تاريخنا الاجتماعي المشترك القديم المتجسد في هذا التصاهر والتزاوج من حياة عالمين جليلين مشهورين، أحدهما من الأندلس، والآخر من كانم جسدا هذا المظهر أو هذه الحقيقة.

الأول: أبو إسحاق إبراهيم الساحلي الغرناطي الأندلسي، الملقَّب في المصادر والمراجع الأندلسية بالطويجن، وكان عالماً ومهندساً، وأديباً وشاعراً، ودبلوماسياً نهض بأدوار ممتازة بين مملكة بني مرين في المغرب ومملكة مالي في القرن الثامن الهجري، فقد تَزوَّج إبراهيم الساحلي زوجة من نساء مالي «واتخذ إماءً للتسرّي من الزنجيات، ورزق منهن أولاداً»[121] وقد ذكر لسان الدين بن الخطيب هؤلاء الأولاد، وشبههم مازحاً على عادة الأندلسيين في المزاح ـ بالخنافسة[122]، وتحدث عنهم عبد الرحمن بن خلدون، فقال «أنهم كانوا وقت تدوين تاريخه ما يزالون يعيشون على ما كان لوالدهم من جاه»[123] قال أستاذنا الدكتور محمد بن شريفة «وفي تنبكتو اليوم أُسرة علمية هي أُسرة الأنصاريين، وهي ترفع نسبها إلى بني نصر ملوك غرناطة، والأقرب أن تكون منسوبة إلى الساحلي الأنصاري»[124].

والآخر أبو إسحاق إبراهيم الكانمي، نسبة إلى كانم في السودان الغربي، وكان هو الآخر أديباً شاعراً فصيحاً فقد رحل من بلاده كانم، وقصد المغرب الأقصى حيث اتصل بالبيئات العلمية، وقُدّر له فيها وفي الأوساط السياسية على

---

(121) الإحاطة في أخبار غرناطة 1: 341.

(122) الإحاطة 1: 341.

(123) العبر 6: 415.

(124) إبراهيم الساحلي: 30، محاضرة الأستاذة آدم باكوناري رقم (3): 24.

عهد الموحدين القبول، وامتدح حاكمها أبا إسحاق إبراهيم بن يعقوب بأمداح، وتزوَّج هناك وأصهر، وبني على زوجته البيضاء «زهراء» التي قال مشبباً بها، وذاكراً امتزاج لونه الأسود ببياضها وفي تشبيه بديع يؤكد صورة الامتزاج بين الأفقين السودان والبيضان:

غيري عليكن يا زهراءُ يصطبر ... لأنَّ صبري على ذاك الهوى صبر
لوني بلونك فردان إذا اجتمعا ... كما يزين سوادَ المقلة الحورُ
وإن شككتِ فقيسي قيس تجربة ... ففي اختبارك ما يُنسىٰ به الخَبَرُ
ولا يَسؤْكِ من الأغمار حالكها ... إن كان كافيَها الصمصامةُ الذكر[125]

وليس ثمة شك في أنَّ هذا التزاوج بين سكان الساحل وجنوب الصحراء قد تولّد عنه بالإضافة إلى الأبناء المولدين الذين ينتسبون بماتة قوية إلى الأفقين نقلُ العادات والتقليد مما أوجد كثيراً من التشابه في أشكال الحياة العامة الاجتماعية والعمرانية والفنية والسياسية وغير ذلك، كما نتج عنه التفاعل المطلوب في أخذ كل فريق من أساليب الحضارة عن الآخر[126] ونحن نجتزئ هنا بضرب أمثلة دالّة.

لقد تطورت التجارة بين الطرفين من مظهر التجارة الصامتة التي شاعت في بداية الاتصال بين الطرفين إلى التجارة الحضارية المباشرة بفعل الحياة الاجتماعية والمصاهرة والتواصل الحقيقي.

ومن مظاهر الحضارة التي تطوَّر بها السودان الأوسط والسودان الغربي، فنُ العمارة الذي نما وازدهر بدخول الجاليات المغاربية والمهاجرين من الغرب الإسلامي إليهما، وإذا كان من العسير أن نسوق أمثلة لما دخل كلَّ إقليم من أقاليم السودان من فن العمارة وتطوره على أيدي هؤلاء الطارئين من الشمال، فيكفي ذكر أمثلة لما وجد في بعضها.

---

(125) قلائد العقيان لابن الشعار، نقلاً عن كتاب تراجم مغربية من مصادر مشرقية للدكتور محمد بن شريفة: 24.

(126) حضارات أفريقيا الغربية: 135، الإحاطة في أخبار غرناطة 1: العبر 6: 416 الثقافة الإسلامية في تشاد: 226.

إن أقدم مثال لهذا الفن المعماري المتطور ما أخبرنا به التاريخ عن المهندس الأديب الغرناطي الأندلسي إبراهيم الساحلي «الطويجن»[127] الذي التقى بالسلطان المالي «منساموسي» في الحج، ثم رحل معه إلى بلاده، حيث أظهر إلى جانب مواهبه الأدبية والدبلوماسية ـ مواهبه الهندسية والمعمارية التي جسدها في مالي بلاد هذا السلطان المسلم المتميز.

وقد تحدّث لسان الدين بن الخطيب عن هذه الشخصية الغرناطية المتميزة كما تحدّث عن دوره الهندسي المعماري في تطوير العمارة في مالي[128] كما أخبر عنه عبد الرحمن بن خلدون وعن هذا الدور نقلاً عن ابن خديجة صديق إبراهيم الساحلي الذي قال: «ورجعنا معه إلى حضرة ملكه، فأراد أن يتخذ بيتاً في قاعدة سلطانه محكمة البناء، مجللاً بالكلس لغرابته بأرضهم، فأطرفه أبو إسحاق الطويجن ببناء قبّة مُرَبعة الشكل، استفرغ فيها إجادته وكان صناع اليدين، وأضفى عليها من الكلس، ووالى عليها بالأصباغ المُشبَعة؛ فجاءت من أتقن المباني، ووقعت من السلطان موقع الاستغراب؛ لفقدان صنعة البناء بأرضهم، ووصله باثني عشر ألفاً مثاقيل التبر، مبثوثة عليها، إلى ما كان له من الأثرة، والميل إليه، والصلات السنية»[129].

وقد أشار الرحالة الوزان (الحسن بن محمد) الذي وقف على هذا الأثر الغرناطي الأندلسي بعد مرور مئتي سنة على البناء، فألمع إلى أن باني المسجد والقصر مهندس أندلسي[130] ـ حسب الرواية المسموعة المتداولة ـ قال الدكتور محمد بن شريفة «والمقصود به شاعرنا (إبراهيم الساحلي) طبعاً، وهو البلدية كما هو معروف»[131].

وتذهب الأستاذة آدم باكوناري إلى أن جهد الساحل (الطوبجن) في تطوير

---

(127) الإحاطة في أخبار غرناطة 1: 503.

(128) الإحاطة في أخبار غرناطة 1: 240.

(129) العبر 6: 416.

(130) وصف أفريقيا 2: 165.

(131) إبراهيم الساحلي ودوره الثقافي في مملكة مالي: 22.

يجن فن العمارة في السودان الغربي لم يكون مقصوراً على ما ذكرناه من المسجد والقصر في تنبكتو بل امتد إلى جني وكاغو من مالي أيضاً، وأغلب الظن أنّه تمَّ أيضاً بتكليف من السلطان منسا موسى وبتشجيع منه، قالت في محاضرتها «فأما آثاره المادية؛ فتتمثل فيما ينسب إليه من مباني ومساجد في تنبكتو وجني وكاغو، وهي أساس العمارة التي اصطلح على تسميتها «بالعمارة السودانية» التي تقوم من الطين المضغوط المقوّى بالخشب على نحو ما هو موجود في جنوب المغرب»[132].

فهذا مثال دالٌّ يوضح أثر الغرب الإسلامي من خلال إبداع العالم المهندس الأديب إبراهيم الساحلي الأندلسي في تطوير فن العمارة السودانية بمالي بملامح ونقائش فن العمارة المزدهر في بلاده «غرناطة» الأندلسية.

ومن المعروف أن ملوك غانة كانوا يبنون قصورهم بناء شامخاً محصناً من الحجارة، ويتخذون لها نوافذ زجاجية، ينمنونها بالزخارف والنقوش، وتشير بعض الدراسات أن هذا التطور المعماري كان نتاج اتصال الحضارة في غانة بالحضارة في الغرب الإسلامي إذ كان ملوك غانة «يستقدمون البنائين من دول المغرب الغربي، ليقيموا لهم المباني والقصور على طراز العربي الإسلامي»[133].

بيد أن المتأمل في أشكال قصور الأمراء والجوامع والمساجد وبيوت الوجهاء والأعيان في السودان الأوسط: تشاد والنيجر، والسودان الغربي مثل نيجيريا والكمرون ومالي وغانة والسنغال، يقف من قريب على التأثر الظاهر عليها من فن العمارة والهندسة الماثلة في قصور ودور ومساجد الغرب الإسلامي بعامة[134].

---

(132) محاضرة الأستاذة آدم باكوناري رقم (3) سلسلة محاضرات التراث المغربي الأفريقي المشتر: 10.

(133) سليمان أبو غزة «الفن المعماري الإسلامي في أفريقيا» صحيفة الدعوة الإسلامية ع: 868 بتاريخ 22 جمادى الآخرة 1424 ـ 2003 الثقافة الإسلامية في تشاد: 224.

(134) الثقافة الإسلامية في تشاد: 224، حضارات أفريقيا الغربية: 135.

ويذهب أستاذنا الدكتور محمد بن شريفة إلى أن دور إبراهيم الساحلي الغرناطي الأندلسي الذي تحدثنا عنه قبل قليل في مالي، كان أبعد وأعمق من هذا الدور الهندسي المعماري المادي الذي أطرف به منساموسى، لأنه يبلغ في تقديره حدَّ التأثير في نواحي حضارية متنوعة استقاها من حضارته الأندلسية وأثرى بها حضارة السودان في مالي قال «ونحن نعرف أنَّ دور الساحلي في مملكة مالي كان أكبر من دور معلم صناع اليدين، ونذهب إلى أنه كان بالإضافة إلى ذلك، ذا أثره مهم في الحياة الثقافية والاجتماعية بتلك المملكة.

وقد يحلو لنا أن نشبه أثرهُ في الحياة المالية بالأثر الذي أحدثه زرياب[135] في الحياة الأندلسية»[136].

كذلك نرى من مظاهر التأثير الحضاري المغاربي على البلاد الواقعة جنوب الصحراء ما ظهر من مراسم في تراتيب قصور الأمراء واحتفالاتهم وتقاليد مواكبهم والعادات المرعية في احتفالاتهم وأعيادهم قال الدكتور محمد بن شريفة في معرض حديثه عن الأثر الحضاري المعنوي لإبراهيم الساحلي الأندلسي الذي لقبه بزرياب السودان في تقاليد قصور مالي «ونقدّر أنَّ عدداً من تراتيب مشور[137] السلطان المالي التي وصفها ابن بطوطة فيما بعد كان بمحاولته، ونظن أنَّ لباس الثياب البيض الحسان الذي شاهده ابن بطوطة في العيدين كان من أثره، فهذا هو لباس الأندلسيين والمغاربة في هاتين المناسبتين»[138] والحقُّ أن أشكال اللباس المغاربي لم يكن حكراً في التأثير به على مجرد السلاطين والأمراء والكبراء، بل تأثر به المحكومون والعامة في السودان، وقد رأيت مظاهر هذا التأثير خلال زياراتي إلى السنغال ومالي ونيجيريا والنيجر وبوركينا

---

(135) هو المغني البغدادي المشهور تلميذ اسحاق الموصلي، دخل الأندلس سنة (206هـ/ 822) فأدخل معه التطوير في فن الغناء والطرب، وفي مظاهر حضارية أخرى زادت في حضارة الأندلس.

(136) إبراهيم الساحلي ودوره الثقافي في مملكة مالي.

(137) المشور في اصطلاح الغرب الإسلامي يطلق على القصر الذي تتم فيه الشورى.

(138) إبراهيم الساحلي ودوره الثقافي في مملكة مالي: 23.

فاسو ـ بارزة عند الأهالي على مختلف طبقاتهم فقد رأيت ـ على سبيل المثال ـ لباس أهل ليبيا المتكوِّن من «لباس الخرج» المتكون من السروال والفرملة والبدعية والزبون المطرزين بالزخارف، والسكروتة وطاقية البسكل» شائعة في بعض لباس البلاد الأفريقية المذكورة، ومثلها لباس أهل تونس والجزائر والمغرب الأقصى.

ومن تقاليد أُمراء السودان الأوسط والغربي التي يجرونها في ساحات قصورهم الفسيحة احتفالات الفروسيّة التي يشارك فيها الفرسان ضمن مراسم منضبطة ورائعة، يستعرض خلالها أمير الإمارة هؤلاء الفرسان وسباقاتهم البديعة على خيولهم المطهمة، وقد أتيح لي أن أحضر في اليوم الثاني من عيد الأضحى سنة (1424/ 2004) في المنصّة الشرفية بقصر أمير كانو استعراض هذه الفروسيّة، ولفتني خلاله أن المذيع أو المُنشّط في ذلك الحفل ما فتئ وهو يتكلم لغة الهوسا يردد أن هذه التقاليد الإسلامية البهيجة إنما ورثناها وجاءت إلينا من التقاليد المغربية في الشمال الأفريقي، وهذا يذكرنا بحقيقة ما أدخل المغاربة وبخاصة أهل المغرب الأقصى من المظاهر الحضارية المختلفة في عادات الفروسية وتكوين الجيوش وترتيبها، وتطوير آلياتها على عهدي الدولة المرابطية والدولة الموحدية. فقد استخدم المرابطون أهل السودان الغربي «في جيوشهم وتنظيماتهم العسكرية، وصاروا يكونون فرقة من فرق الجيش، وقد بدأ هذا الإجراء أمير المسلمين يوسف بن تاشفين حيث عزم على توطيد سلطانه ودعم نفوذه»[139].

وليس ثمة شك في أنَّ عليَّ بن يوسف بن تاشفين وولده تاشفين بن علي قد استعانا أيضاً بأهل السودان في جيوشهم وفي حروبهم ومعاركهم أيضاً.

وما من شك أيضاً في أنَّ دولة الموحدين التي أعقبت الدولة المذكورة استخدمت أهل أفريقيا الغربية ذلك الاستخدام وأنَّ هؤلاء السودانيين قد استفادوا استفادة كبيرة من تلك التقاليد الفروسية والعسكرية في عهدي الدولة المرابطية

(139) الحلل الموشية: 13، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس: 323.

والدولة الموحديّة، كما استفادوا أيضاً من هذه المظاهر من المهاجرين الأندلسية إليهم، وبخاصة في العصر الموحدي الذي دخلت معه التقاليد الأندلسية في الفروسية، والأساليب العسكرية يقول الأستاذ الدكتور محمد بن شريفة مشيراً إلى هذا العنصر الأندلسي، وأثره في النسيج البشري والحضاري السوداني «أما العنصر الأندلسي الفعلي، فهو الذي عرفته مالي بعد وصول الأندلسيين الذين كانوا في جيش المنصور، وما يزال نسلهم موجوداً في تنبكتو إلى اليوم»[140].

إنّ ما ذكرناه سلفاً يتصل اتصالاً مباشراً بمقدار التأثير الحضاري الذي كان سائداً في الغرب الإسلامي في النسيج الحضاري لبلاد السودان، والتأثير الضمني لأهل السودان في حياة الفروسية المغربية، ونجاحات جيوشها في حفظ ملك الدولة المرابطية والدولة الموحدية، وإسهامات هؤلاء الأفارقة أيضاً في حروب المسلمين ضد الصليبيين في الأندلس.

والحقُّ أنَّ هذا التأثير الأفريقي في الغرب الإسلامي ـ والذي لا يزال في حاجة ماسّة لجهود الباحثين لتتبع آثاره وآفاقه ـ لم يقتصر على ما ذكرناه فحسب، بل امتد تحت تأثير هذا التفاعل الحضاري إلى مظاهر حضارية في الطعام والشراب، وفي الفن والغناء والرقص، وإلى مظاهر ثقافية وحضارية أخرى.

فقد أشارت كثير من المراجع إلى تأثير فن الطبخ الأفريقي في مطاعم الغرب الإسلامي، والذي تمّ إما عن طريق المصاهرة كما تقدّم أو عن طريق الاستخدام، يقول صاحب كتاب «الاستبصار» عن مدينة أودغشت، ويجلب منها سودانيات طباخات محسنات يُحسنَّ عمل الأطعمة، ولا سيما أصناف الحلاوات مثل الجوزنيقات والوزينجات والقاهريات والكنافيات والقطائف والمشهيات وأصناف الحلاوات فلا يوجد أحذق بصفتها منهن»[141].

(140) إبراهيم الساحلي ودوره الثقافي في مملكة مالي: 30.

(141) الاستبصار نقلاً عن الحضارة الإسلامية والأندلس: 323.